المبحث الرابع

«علاقة علم الإنسان بالعلوم الأخرى»[1]

استناداً إلى تطور نظرية المعرفة وإلى الموقع المحدد للأنثروبولوجيا في هذه النظرية فإنها (الأنثروبولوجيا) تحتل مكانها المرتبط بعملية التطور المذكورة، وانطلاقاً من هنا تحدد علاقتها بالعلوم الأخرى.

ونقصد بالعلوم الأخرى:

أ- العلوم الاجتماعية: التي تنتمي الأنثروبولوجيا إليها مباشرة.

ب- العلوم الأخرى غير العلوم الاجتماعية: (أي بقية العلوم مثل: العلوم التاريخية والأدبية، والطبية والطبيعية.. إلخ).

ونعتقد أن معايير تحديد علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى تستند إلى نوع العلاقة هل هي علاقة مباشرة أم غير مباشرة؟ والمباشرة نقصد بها: علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية لأنها من طينتها أو من عائلتها المعرفية، أما العلاقة غير المباشرة فهي: علاقة الأنثروبولوجيا بباقي العلوم مهما كان نوع هذه العلوم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تحديد علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى يقف عند مضمون كل من الأنثربولوجيا من جهة ومضمون العلم الآخر المراد تحديد علاقة الأنثربولوجيا به (أي أن تحديد علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى

---

(١) للمزيد من الاطلاع والتفصيل: انظر كتاب علم دراسة الإنسان «الأنثربولوجيا» د. عدنان مسلم. منشورات جامعة دمشق ١٩٩٢-١٩٩٣م.

obeikandl.com

يشمل أولاً: نوعية العلاقة هل هي مباشرة أم غير مباشرة؟ ثانياً: مضمون هذه العلاقة وماذا يتضمن كل علم معرفياً. وكل ذلك استناداً إلى الشكل التوضيحي الذي يحدد موقع ومكانة الأنثروبولوجيا في نظرية المعرفة

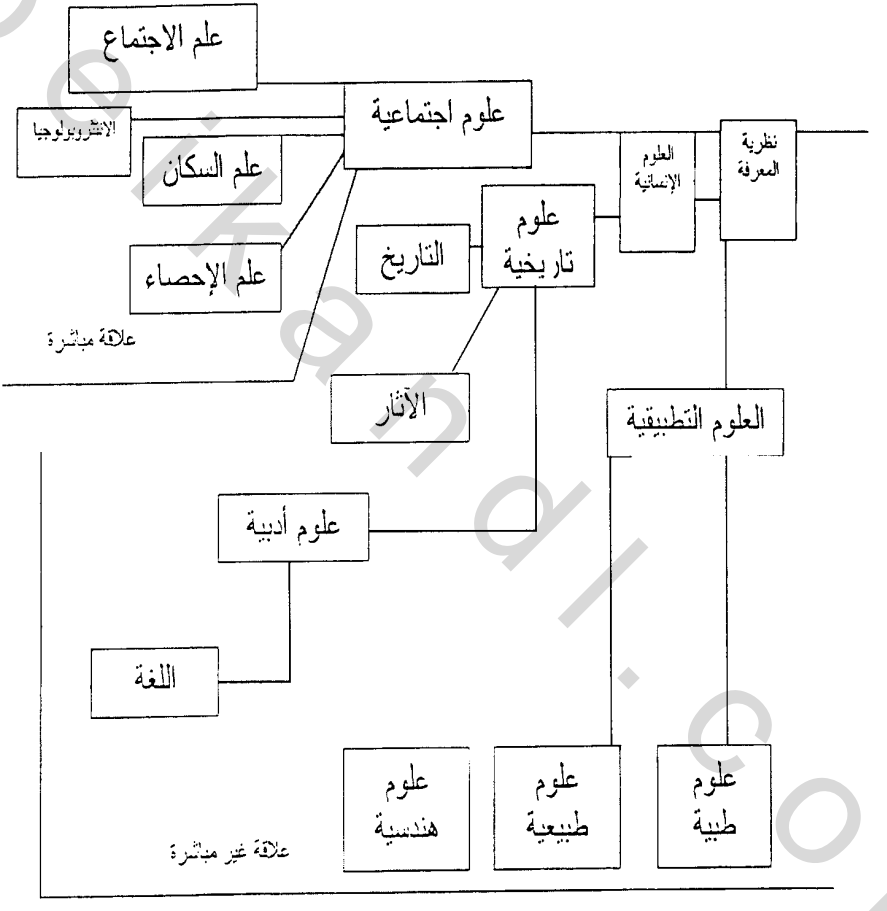

شكل توضيحي يبين علاقة الانثروبولوجيا بالعلوم الأخرى
استنادا إلى موقعها في نظرية المعرفة

obeikandl.com

أ- نماذج من العلاقة المباشرة:

١- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع:

استناداً إلى الفهم الذي يجسد أن الأنثروبولوجيا هي دراسة الشعوب البدائية البسيطة والمنعزلة، وعلم الاجتماع هو دراسة الحضارة الأوربية الغربية، فإن الفارق بين العلْمين كان واسعاً، وقد اتسع ذلك إلى مسألة المنهج المستخدم في كلا العلَمين، فالأنثروبولوجي الذي يدرس جماعة صغيرة الحجم نادراً ما يحتاج إلى أن يشغل نفسه بمشكلات العيِّنة على سبيل المثال، كذلك نرى أن استخدام أداة جمع البيانات (الاستمارة) في علم الاجتماع لم تستخدم على نطاق واسع في الدراسات الأنثروبولوجية ناهيك عن أن الأنثروبولوجيا في منهجية العمل تعتمد على الوصف والتوثيق أكثر من اعتمادها على التحليل وكشف العوامل المؤدية إلى وجود المشكلة . . . إلخ.

غير أن المسألة لم تقف عند هذا الحد، فمع النظرة التطورية لميدان الأنثروبولوجيا على أنها ليست العلم المعرفي الذي يدرس الشعوب البدائية وإنما هي الميدان المعرفي الذي يدرس الإنسان في مجتمعه المتطور فقد تشابه علم الاجتماع مع الأنثروبولوجيا في مجالات الدراسة وموضوعاتها المختلفة، وحتى في الطرق المنهجية والأدوات القياسية (نقصد بالطرق المنهجية: طريقة دراسة الحالة، التاريخية، التجربية، تحليل المضمون . . . إلخ) و(الأدوات القياسية مثل: الاستمارة، المقابلة الشخصية،

الملاحظة . . . إلخ) فباتت المشكلات الأساسية في كل من العلمين تصل إلى درجة من التشابه تجعلهما يصلان إلى نظرية متقاربة، هذا إن لم تكن نظرية واحدة بالنسبة لكليهما، فمثلاً: أضحى مفهوم الثقافة يستخدم على نطاق واسع عند علماء الاجتماع (علم الاجتماع الثقافي)، وقد أثبت في هذا الصدد أنه أداة بحث هامة ومفيدة ويحرص كل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بدرجة متزايدة على أن يستفيدوا في وضع نظرياتهم بالمادة التي يقدمها كل منهم، وبات الأنثروبولوجي يرى أن وظيفته الأساسية هي خلق قدر من التكامل بين العلوم المختلفة التي تدرس الإنسان.

إذاً . . . الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان في المجتمع المتطور ضمن النسق الاجتماعي، والبناء الاجتماعي، والإنسان كعادات وتقاليد وأمثال شعبية صادرة عنه، وسلوك اجتماعي محدد . . . إلخ.

وعلم الاجتماع يدرس الإنسان في المجتمع المتطور على أنه سلوك اجتماعي وعلاقات اجتماعية وبنية اجتماعية وطبقية . . . إلخ. ولعل الاشتراك في الموضوع بات واضحاً، إضافة إلى الاشتراك في استخدام الطرائق المنهجية التي أشرنا إليها (سابقاً) وكذا الأودات القياسية.

٢- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس:

يدرس علم النفس الإنسان في إطار مشكلات السلوك، وقد ظل هذا الميدان المعرفي لفترة طويلة يهتم بالسلوك الفردي فقط، في حين كانت

الأنثروبولوجيا تميل إلى وضع تعميمات جماعية على أسس ثقافية، وصحيح أن الدراسات المقارنة التي أجراها علماء الأنثروبولوجيا قد ساعدت على تفويض نظريات الغرائز التي كانت شائعة قديماً في علم النفس إلا أن العلاقات الوثيقة بين كل من الأنثروبولوجيا وعلم النفس لم تكن تتكون وتنمو إلا بعد أن وجه علماء الأنثروبولوجيا اهتمامهم إلى موضوع العلاقة بين الثقافة والفرد.

وقد ظهر الاهتمام بمشكلات الأفراد في الأنثروبولوجيا في الوقت الذي كان علماء النفس يركزون فيه على مشكلات السلوك الحيواني؛ ونتيجة لهذا أخذ الأنثروبولوجيون يوجهون اهتمامهم إلى المتخصصين في التحليل النفسي والطب النفسي؛ يستمدون منهم مفاهيمهم النفسية، وما زال هذا الاتجاه واضحاً في الدراسات الأنثروبولوجية، وكذلك بالنسبة لموضوع الثقافة، ولعل التأكيد على أن كل ثقافة تمثل كياناً كلياً متكاملاً هي من الإسهامات الأساسية التي قدمتها الأنثروبولوجيا للعلوم الاجتماعية بشكل عام.

٣- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم السكان:

يدرس علم السكان التركيب النوعي للسكان، والتركيب العمري (فئات الأعمار)، والتركيب الحركي (الهجرة والولادات والوفيات) وما إلى هنالك من موضوعات تتعلق بالجوانب السكانية (الهرم السكاني). ولعل الباحث الأنثروبولوجي عند دراسته لمجتمع محلي أو غيره يحاول

الاستفادة من علم السكان؛ لأنه يحتاج إلى معرفة البنية السكانية للمجتمع المدروس، وكذلك تركيبه العمري والنوعي، ومن هنا تتحد العلاقة بين كل من الأنثروبولوجيا وعلم السكان.

هذه نماذج من أمثلة عن العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، وهي من ضمن العلاقات المباشرة كما أشرنا سابقاً. والحال نفسها الحال إذا أردنا تحديد علاقة الأنثروبولوجيا مع أي علم آخر من العلوم الاجتماعية كعلم الإحصاء أو الاقتصاد.. إلخ.

ب- نماذج من العلاقة غير المباشرة:

أشرنا - فيما سبق - إلى أن العلاقة غير المباشرة هي علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم غير الاجتماعية على اعتبار أن العلاقة المباشرة هي علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية. واستناداً إلى ذلك نعرض بعض النماذج.

١- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم التاريخ:

يدرس علم التاريخ الإنسان من خلال أحداث تاريخية مرتبطة ومراحل زمنية تعبر عن حضارته وثقافته وعاداته وتقاليده... إلخ ويلتقي في ذلك مع الأنثروبولوجي الذي يدرس ذات الموضوعات معتمداً على الوصف والتحليل لهذه الأحداث ومعبراً عن هذه المراحل الزمنية بتحليل الحضارة الإنسانية.

ولعل موضوعات الثقافة والتكامل الثقافي أصبحت تراثاً مشتركاً لدى كل من علمي التاريخ والأنثروبولوجيا؛ لأن ثقافة الشعوب البدائية كانت ولا زالت موضوع بحث كل من هذين العلمين واستناداً إلى ذلك كله يمكن تحديد العلاقة التي تربط الأنثروبولوجيا بعلم التاريخ.

٢- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الآثار:

ترتبط الأنثروبولوجيا بعلم الآثار ارتباطاً وثيقاً، فمن الواضح أنه (علم الآثار) يعتمد على الدراسات التتبعية (يتتبع)، حيث يركز في الأساس على المجتمعات والثقافات القديمة، وكذلك على المراحل الغابرة من الحضارات الحديثة، وهو يحاول إعادة رسم صورة الأشكال الثقافية الماضية، وتتبع نموها وتطورها عبر الزمان؛ لذلك يتحتم على عالم الآثار - على الرغم من أنه يستخدم السجلات المكتوبة كلما وجد إليها سبيلاً - أن يعيد رسم صور ثقافات العصور الغابرة بالاستعانة بمخلفاتها المادية وحدها في أغلب الأحيان، فقد يعثر على بعض الملاجئ التي كان يعيش فيها الإنسان القديم كالكهوف مثلاً، وكذلك على بعض الأدوات والأسلحة التي صنعها ذلك الإنسان واستخدمها، وعلى الأواني وغيرها من الأدوات المدفونة في باطن الأرض سواء مع صاحبها الذي كان يستخدمها أو في أكوام مكدسة في مكان إنتاجها، كذلك قد يعثر عالم الآثار على بعض الرسوم والنقوش الحجرية والأشكال المصنوعة من الطين المحروق (الفخار) وعلى أطلال المعابد القديمة والبيوت وأسوار المدن القديمة... إلخ.

وجميع هذه المواد تساعد الأنثروبولوجيا بوصف جانب من الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية التي عاشت فيها، إضافة إلى معرفة حضارة الإنسان الكلية عبر هذه المواد التي يجدها عالم الآثار.

ومن هنا فالدراسات التي يقدمها عالم الآثار واكتشافاته الأثرية هي مادة علمية للوصف والتحليل من قبل الأنثروبولوجيا (علم الإنسان).

٣- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم اللغويات:

اللغة هي التعبير، وهي الرمز، والإشارة والدلالة على الأشياء، فيعبر الإنسان عن سلوكه الاجتماعي باللغة، ويرمز لعناصر حضارته باللغة وهكذا.

وعلوم اللغويات - بشكل عام - تختص بدراسة جميع لغات البشر بما في ذلك اللغات المستخدمة اليوم، واللغات القديمة المرتبطة بالشعوب البدائية وشبه البدائية، ولعل اهتمام دارس اللغويات يتركز على اللغة ذاتها، فيهتم بأصولها وتطورها وبنائها... إلخ. ودارس فقه اللغة أيضاً يلجأ إلى فهم اللغة كوسيلة لفهم التراث الأدبي لشعب من الشعوب، وهكذا لتتحقق عملية الربط بين الأنثروبولوجيا وعلوم اللغة من خلال اهتمام الأنثروبولوجيا باللغة كوسيلة تعبير للشعوب في مجتمعاتها تعبر من خلالها عن العادات والتقاليد والثقافة... إلخ، إضافة إلى ربط لغة مجتمع معين بمكانة هذا المجتمع، وكيف أن الرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والمناسبات الدينية تجسد ثقافة هذا المجتمع وخلفيته الحضارية.

obeikandl.com

وهنا لابد من الإشارة إلى مسألة هامة، وهي أن الأنثروبولوجيا كما كانت عند البعض هي علم دراسة لغة ورموز وعادات المجتمع البدائي بقبائله المختلفة. على أن لغة ورموز التعبير التي كانت سائدة في هذا المجتمع هي التي كانت تشكل مادة الأنثروبولوجيا.

إذن من كل ما سبق نستطيع القول: إن هناك علاقة بين الأنثروبولوجيا وعلوم اللغة أو اللغويات، فكل من هذين العلمين يحاول أن يفهم دور اللغة في المجتمعات البشرية والمهمة التي جسدتها في رسم الصورة العامة للحضارات الإنسانية المتطورة.

فلا نستطيع التعرف (مثلاً) على ثقافة مجتمع وعاداته وتقاليده ما لم نعرف لغته بعناصرها وبنيتها الكلية والجزئية.

٤- علاقة الأنثروبولوجيا بعلوم التشريح والأعضاء والوراثة:

من خلال ما تقدمه هذه العلوم من موضوعات ودراسات عن الإنسان من الناحية البيولوجية أو العضوية - ولعل في ذلك ارتباطاً واضحاً بين هذه العلوم والأنثروبولوجيا - فقد كانت دراسات علوم التشريح والوظائف والأعضاء والوراثة مصدراً هاماً من مصادر تكوين الأنثروبولوجيا وبخاصة الجانب البيولوجي فيها، حيث استدلت الأنثروبولوجية على الأصول الأولى للإنسان وخصائصه العضوية وشكله وما إلى ذلك من خلال هذه العلوم.

٥- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجية:

أشرنا في مجال سابق إلى أن الدراسات الجيولوجية شكلت مصدراً من مصادر تكون المادة الأنثروبولوجية على اعتبار أن الحفريات القديمة تفيد في تحديد عمر البقايا العظمية لإنسان ما قبل التاريخ، وتحديد حضارته وثقافته بشكل عام التي هي مادة علمية لعلم الإنسان أو الأنثروبولوجيا، ونعتقد أنه من هنا تتحدد علاقة هذا العلم (الأنثروبولوجيا) بعلم الجيولوجيا أو الحفريات.

وهكذا نستطيع أن نعرض لنماذج عدة من العلاقات غير المباشرة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى. ولعل العديد من العلوم تفيد الأنثروبولوجيا وتتحدد علاقتها بها من خلال استخدام تقنيات أو نتائج هذه العلوم في حل مشكلات معينة، فعلى سبيل المثال لا يمكن للأنثروبولوجي أن يفهم نظام التقويم الحسابي الزمني عند الشعوب البدائية إلا من خلال الإفادة من معلومات وبيانات ودراسات علم الفلك، وهكذا تستخدم مبادئ علوم الكيمياء والفيزياء في التعرف على دراسة المصنوعات الخزفية التي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ونشير هنا - كما تزعم الدراسات - إلى أن اكتشاف إنسان ما قبل التاريخ والمزعوم بإنسان بكين قد جاء نتيجة العثور على قطعة من حجر الكوارتز في ذات المنطقة (بكين).

وهكذا تتحدد علاقة الأنثروبولوجيا بأي ميدان معرفي من خلال تحديد نوعية العلاقة أولاً، ثم الإجابة عن السؤال: ماذا يدرس هذا العلم الذي نريد أن نحدد علاقته بالأنثروبولوجيا؟ ومن خلال المقارنة نستطيع تحديد أوجه التشابه والاختلاف بينهما وإمكانية عملية الربط بين القضايا والموضوعات المشتركة.

٦- علاقة علم الإنسان بعلم التربية:

يتضمن علم التربية - بشكل عام - عملية التنشئة الاجتماعية والنمو المتكامل للشخصية الفردية.

فيدرس مراحل نمو الفرد في المجتمع والمشكلات التربوية التي تواجه كل مرحلة من هذه المراحل، كما يدرس كيف يتكيف الفرد مع المجتمع عبر عملية التنشئة الاجتماعية وقد كانت هذه الموضوعات مجالات بحث علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في المجتمعات البدائية، فقد كانت الأسرة والعشيرة والقبيلة هي المؤسسة الاجتماعية التي تضطلع بشؤون تنشئة وتربية الطفل، وقد كانت هذه المسائل من أهم دراسات علم الإنسان، ولعل دراسة العلامة الأنثروبولوجية (مارجريت ميد) بعنوان النمو في (غينيا الجديدة) والبلوغ أو المراهقة في (ساموا) هي من الدراسات الي عالجت مشكلات المراهقة في المجتمع البدائي. ولا نغالي إن قلنا: أصبحت موضوعات التربية محوراً في الدراسات الأنثروبولوجية التربوية، ناهيك عن أن التربية تعالج من الوجهة الأنثروبولوجية على أنها نسق اجتماعي له صفة الإلزام على أساس أن لكل مجتمع في أي زمان ومكان أُطُره الخاصة في تربية النشء.

٧- علاقة علم الإنسان بعلم طب المجتمع:

يبحث علم طب المجتمع في علاقة الصحة العامة بالوعي الاجتماعي لدى الأفراد في المجتمع، ومدى الأثر المتبادل بينهما من جهة، ومدى تأثر الصحة العامة بالمستوى التكنولوجي والقيم والعادات والأعراف كمؤشرات هامة في الحياة الصحية من جهة أخرى.

فعندما يدرس طب المجتمع موضوع الوعي الصحي في المجتمع وارتباطه بعادات وتقاليد ذلك المجتمع ويحدد الأمراض المنتشرة فيه وعلاقتها بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي والعادات والقيم المنتشرة، وعندما يدرس علاقة العلاج الشعبي (الطب الشعبي) بالمعتقدات القادمة لدى الأفراد في المجتمع وارتباط ذلك بالفكر الخرافي والشعوذة وأشكال السحر وغير ذلك فإن هذه الموضوعات تشترك فيها الأنثروبولوجيا مع علم طب المجتمع، وقد شكلت هذه الدراسات محاور هامة في علم الإنسان في المجتمعات شبه البدائية القديمة حيث كانت هذه المجتمعات بعاداتها وتقاليدها مناخاً خصباً لذلك.

ولا شك أن هذه الموضوعات المشتركة بين العلمين خضعت لعملية التطور المعرفي، وباتت الدراسات الحديثة المتعلقة بعلم طب المجتمع هي -أيضاً- دراسات مشتركة مع التوجهات المعاصرة للأنثروبولوجية.

ولعل اهتمام الشعوب والدول (على اختلاف مستوياتها حالياً) بالأثر الاجتماعي للأمراض الوبائية والقيام بالإجراءات الصحية والوقائية

المتعددة عند ظهور أعراضِ أمراضٍ وَبائيةٍ مثل: الكوليرا وغيرها، لعل ذلك يعد من الموضوعات المشتركة بينَ الإخصائي الأنثروبولوجي وإخصائي الرعاية الصحية في المجتمع، ونعتقد أن تطور هذه الدراسات منذ المجتمعات البدائية حتى الآن شكل بدوره مجالاً لظهور ميدان معرفي من ميادين الأنثروبولوجيا هو ميدان (الأنثروبولوجيا الطبية).

* * *
* *
*

obeikandl.com